

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

تأملات قرآنية - الدرس : 35 - من سورة الصافات ويس - مشاهد من يوم القيامة.

26-01-1997

العبرة لمن يضحك آخرًا :

أيها الأخوة؛ في سورة الصافات آية تمثل مشهداً من مشاهد يوم القيامة:

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \* قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ \* يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ \*  
أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنبَا لِمَدِينُونَ \* قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ \* فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ \* قَالَ  
تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينِ \* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ \* أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ \* إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ  
وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّبِينَ \* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

[سورة الصافات: 50-60]

العبرة أيها الأخوة لمن يضحك آخرًا، الدنيا قد تأتي وقد تغيب، ولكن العبرة لمن يضحك آخرًا. يقول الله عز وجل:

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[سورة الأعراف: 128]

الإنسان يولد وهو يبكي، وكل من حوله يضحك فرحاً به، حينما يموت كل من حوله يبكي فإذا كان موفقاً يضحك وحده، اجهد أن تضحك عند لقاء الله عز وجل.

أحد الصحابة الكرام اسمه سعد بن الربيع تفقده النبي عليه الصلاة والسلام فأرسل من يبحث عنه في ساحة المعركة، أرسل أحد أصحابه الكرام إلى ساحة المعركة فعثر عليه، قال: يا سعد لقد أمرني رسول الله أن أتفقدك أنت بين الأحياء أم بين الأموات؟ أي ما حالتك؟ قال: أنا بين الأموات، أقرئ رسول الله مني السلام وقل له: جزاك الله خيراً ما جرى الله نبياً عن أمته، وقل لأصحابه: لا عذر لكم إذا خلص لنبيكم وفيكم عين تطرف.

أيها الأخوة: الشيء المدهش أنك إذا قرأت سيرة أصحاب رسول الله تعجب أشد العجب، إنهم جميعاً في أسعد لحظات حياتهم حينما يلقون ربهم، أي لنجهد أن نضحك حينما نلقى الله عز وجل، للمؤمن فرحتان؛ فرحة يوم يفطر، وفرحة يوم يلقى الله.

﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ \* يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾

بالتعبير الدارج: أنت قابض الصلاة؟ هل أنت مصدق لها؟ هؤلاء المشككون:

﴿أَنذَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظَامًا أَنْنَا لَمَدِينُونَ﴾

سنحاسب عن أعمالنا؟

أخواننا الكرام؛ هل تصدقون أن إنساناً يعتدي على الناس، ويأخذ ما ليس له، ويتحرك حركة عشوائية، هل يمكن لهذا الإنسان أن يوقن يقيناً حقيقياً أن هناك حساباً؟ أبدأ، ما من مسلم من المسلمين يستطيع أن ينكر الدار الآخرة، لكن والله معظم المسلمين ليست داخله في حساباتهم إطلاقاً وكأنهم غير مؤمنين به.

### الدنيا دار عمل و الآخرة دار جزاء :

قلت لكم في دروس سابقة: الحياة مبنية على بذل الجهد:

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾

[سورة الإنشقاق:6]

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾

[سورة البلد:4]

أي حياته سلسلة مشقات، إلا أن الآخرة دار جزاء، أي شيء يخطر في بالك تجده أمامك، أنت الآن لو أردت أن تعرف حال صديق لك في حلب لا بد من أن تزوره، لا بد من أن تنتقل من دمشق إلى حلب، لكنك إن أردت أن تعرف أحد الناس في الجنة أم في النار يكفي أن يأتيك خاطر فإذا هو أمامك

﴿فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾

الإنسان عندما يطل على النار:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾

[سورة مريم: ٧١]

يطل عليها دون أن يدخلها، ودون أن يتأذى بوهجها، يعرف قيمة إيمانه، وكيف أن الله سبحانه وتعالى امتن عليه بالإيمان.

### الفوز العظيم لمن زحزح عن النار و أدخل الجنة :

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ \* قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَأُثْرِدِينَ﴾

- كدت أهلك معك -

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ \* أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾

- استفهام إنكاري -

﴿ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ﴾

اسمع الآية.. اسمع أيها الأخ الكريم إن هذا يعني أن تكون في الجنة، وأن تزحزح عن النار، أن تتعم بجنات من تحتها الأنهار، أن تتعم بالحدود العيون، أن تتعم بالنظر إلى وجه الله الكريم، أن تتعم بأعلى شيء في الجنة وهو رضوان الله، أن تكون في جنة الخلد إلى أبد الأبد، هذا هو الفوز العظيم، يوجد بالحياة مليون نجاح.

يوجد نجاح بالفن يقول لك: نجم، نجاح بالمال يقول لك: ملك الذهب، ملك الحديد، يوجد نجاح بالمنصب يقول لك: أعلى منصب بالعالم، يوجد نجاح بالمتع، وهب حظوظ كثيرة. أما ربنا عز وجل خالقنا ومربينا فيقول:

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

لذلك أيها الأخوة:

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾

[ سورة الصافات: 61 ]

صدقوني ما منا واحد إلا وله عمل، حركته بالحياة من حين يستيقظ إلى أن يؤوي إلى فراشه، ماذا فعل؟ ذهب إلى دكانه، إلى مكتبه، إلى متجره، عقد صفقة، استفهم، تابع معاملة، مجمل هذا العمل ماذا تريد منه؟ المؤمن يبتغي وجه الله، المؤمن أعماله كلها منسجمة مع هدفه، المؤمن أية حركة وأية سكنة تحسب له عمل صالح:

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾

[ سورة الصافات : 60-61 ]

أي الإنسان أحياناً يكون ذكياً لكن لا يكون عاقلاً، قد يكون ذكياً في عمله، في اختصاصه، ولكن حينما يغيب عن الله يغيب عن الدار الآخرة لا يعد عاقلاً إطلاقاً.

#### الاستثناءات الطرئة هدفها تأكيد القاعدة :

يوجد كلمة لبعض العلماء لطيفة هي أن الاستثناء يؤكد القاعدة، أي يولد مئة ألف طفل يوجد بين أذيني قلبهم فتحة، لأن الطفل الصغير وهو في رحم أمه لا يوجد له جهاز تنفس، هذه الدورة التي تذهب من الأذنين إلى الرئة إلى الأذنين هذه دورة معطلة في رحم الأم، لذلك ربنا مرحلياً يفتح فتحة بين الأذنين، الدم ينتقل من أذنين إلى أذنين، أما حينما يلد الطفل- هكذا تعلمنا في المدارس- فتأتي جلطة فتغلق هذه الفتحة، يولد مئة ألف طفل، هذه الفتحة تغلق، بكل مئة ألف طفل يأتي طفل تبقى هذه الفتحة مفتوحة، يصاب بمرض اسمه: داء الزرق، يعيش إلى عشر سنوات تقريباً ثم يموت، لأنه لا يستطيع أن يصعد أكثر من درجتين أو ثلاث لأن الدم أزرق، فحينما ينبض الأذنين ليذهب الدم إلى الرئتين يوجد فتحة قريبة فيختار الطريق الأسهل، الدم ينتقل إلى الأذنين الأيمن فيضخ إلى الجسم أزرق اللون، اسمه: داء الزرق.

رأيت مرة عملية جراحية فُتح القلب، وأدخلت رقعة صغيرة إلى داخل القلب، وأغلقت الفتحة بين الأذنين، إذاً هذا الطفل الذي يولد من بين عشرة آلاف طفل فتحة أذينية ليست مغلقة ما الحكمة؟ هذا استثناء من أجل أن تلتفت إلى القاعدة، طبعاً ليست على حساب هذا الطفل، لحكمة بالغة أراد الله له ذلك، ولو كُشف الغطاء لاختار الواقع، ولكن هذا الاستثناء يؤكد القاعدة.

شخص عنده بقرة مذلة، الطفل يحلبها، والمرأة تحلبها، لا يخاف أحد منها، هذا التذليل أي لم يخطر في بال إنسان أن يسأل عنه من الذي ذللها؟ العقرب غير مذلل؟ العقرب صغير، وزنه خمسون غراماً، غير مذلل، أما هذه فوزنها ستمئة كيلو، وهي مذلة، الجمل مذلل، الأفعى غير مذلة، الإنسان إذا رأى أفعى يقفز من شدة الخوف، الأفعى غير مذلة، العقرب غير مذلل، بينما هناك حيوانات كبيرة جداً مذلة. الآن حينما تجن بقرة، وتقتل رجلاً ورجلين وثلاثة ولا يجد صاحبها بدأ من أن يطلق عليها رصاصة يقتلها، وثمانها سبعون ألفاً، هذا الجنون الذي أصاب البقرة ما حكمته؟ كي تلتفت إلى القاعدة، الاستثناءات الطارئة هدفها تأكيد القاعدة، لأن الإنسان أحياناً في غمرة الحياة لا ينتبه لهذه النعم، فالإنسان الشاكر يعرفها وهي موجودة، أما الأقل شكراً فلا يعرفها إلا حين فقدها، من هنا قال عليه الصلاة والسلام: " اللهم أرنا نعمك بوفرته لا بزوالها" وأخواننا الكرام إذا الواحد شكر الله عز وجل، أي شخص دخل ليقضي حاجة، أفرغ المئانة ببساطة لا يوجد حصر، ولا فشل كلوي، ولا ضعف، هذه نعمة لا تعدلها نعمة، كان عليه الصلاة والسلام يقول: " الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، و أبقى لي ما ينفعني " لو أن البول عاد إلى الأوعية لأصبح هناك تسمم.

### شكر النعم التي أعطاها الله للإنسان :

إذاً كما قال الله تعالى في سورة يس:

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾

[ سورة يس:72 ]

دقق إما أن تقدر نعمة التذليل، أو تجن البقرة، أي الخير الذي قرأته مرة أنه تمّ إعدام عشرين مليون رأس غنم في أستراليا بالرصاص، وحفرت لها قبور كبيرة جداً دفنت بها للحفاظ على أسعار اللحم في العالم، بينما شعوب تعاني من الجوع كالصومال وبنغلادش، تعاني معاناة شديدة. مرة ثانية في إنكلترا مضطرون إلى إحراق أحد عشر مليون بقرة، ثمنها ثلاثة و ثلاثون مليار جنيه إسترليني، فالإنسان عندما لا يشكر نعمة تذليل البقر يجن البقر، وكل نعمة لا تلتفت إليها الله جل جلاله يريد أن يعرفك بها تفقدها، وأصعب شيء أيها الأخوة السلب بعد العطاء.

إذا الإنسان تحرك من محله إلى بيته يتكلم مع صديق حديثاً عميقاً وذا شجون، ويمشي في الطريق من دون تفكير، يوجد عند الإنسان مركز قيادة آلي، أحياناً الطائرات بعد أن تحلق في أجواء السماء توضع على القيادة الآلية، الطيار ليس له عمل أبداً، إطلافاً، يقوم من مكانه ويتجول مع الركاب، الطائرة مبرمجة، مئتا كيلو متر بهذه الزاوية والارتفاع، ثم انحراف عبارة عن ثلاثين درجة، ثم الهبوط إلى المستوى الفلاني، كله يتم بشكل آلي، وربنا عز وجل من رحمته بنا أعطانا مركز قيادة آلي، أحياناً شخص يخلق صباحاً من دون تفكير، يقود مركبته من دون تفكير، يقوم بأعماله اليومية من دون تفكير، التفكير موفر لأشياء أهم من ذلك، هذه القيادة الآلية يوجد ذاكرة تصعد إلى منزلك من دون تفكير، من شارع إلى شارع إلى شارع، أحياناً الإنسان يفقد ذاكرته، أيضاً هذا الاستثناء من أجل تأكيد القاعدة، قال في سورة يس:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾

[ سورة يس: 67 ]

أعرف أحياناً عندنا هنا صلى مرات كثيرة، له معمل في حوش بلاس، خرج منه فلم يعرف أين منزله، بقي في الطرقات ساعات طويلة، تذكر بيت ابنه في الجسر ذهب إليه، قال له: يا بني أين بيتي أنا؟ قال:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾

[ سورة يس: 67 ]

تتذكر أولادك، تتذكر أصدقاءك، تتذكر أخوانك، يمكن على الهاتف الذي أخبرك تقول: فلان أعرفك من صوتك، ذاكرة شمعية، ذاكرة سمعية، ذاكرة صوتية في الذهن، فهذه نعم عظمى.

من عاش تقياً عاش قوياً :

الشيء الثاني:

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

[ سورة يس: 68 ]

تضعف ذاكرته، يعيد القصة مئة مرة، يضيق خلقه، يصبح حشرباً، يصبح ظله ثقيلاً، هذا إذا كان لم ينشأ في رحاب الإيمان، أما والله أيها الأخوة أبشروا كل إنسان أمضى شبابه في طاعة الله، والله له خريف عمر متألق، أنا ذهبت إلى حلب والتقيت بأحد العلماء، والله ما رأيت إنساناً بحياتي بحالة من العز، والتألق، والنورانية، والوقار، والهيبة كهذا الشخص، هو في التسعين من عمره، تشتت الكبر على هذا العالم، حفظناها في الصغر فحفظها الله لنا في الكبر، أي من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، إنسانة توضع على ديوان تربط يداها ورجلاها بأحزمة متينة، قلت لابنها: لماذا؟ قال لي: لأنها إذا أطلقت

يذاها تخلع كل ثيابها وتأكل من غائطها، تخلع ثيابها كلها، وتأكل من غائطها، ويوجد في مشفى المجانين في الرقم ستة كلهم عراة، كل شيء يحطمونه، المدفأة يحطمونها، يوضع لهم الطعام على الأرض وينبطحون لأكله، أي كما خلقهم الله.

فلذلك:

### ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

[ سورة يس:68 ]

لكن صدقوني المؤمن معافى، رحمة الله بالمؤمن كبيرة، هذا الذي أمضى شبابه في طاعة الله، عمره ستة و تسعون عاماً، نظره حاد، وسمعه مرهف، وأسنانه في فمه، والله سألت أحد أخواننا أطباء الأسنان هل مرّ معك مريض لم يغير سنناً ولم يعالج سنناً؟ قال لي: والدي، عمره خمس و ثمانون سنة، ولا يوجد عنده أي سن مُحشّى، كله كامل، لكنه ورع جداً، كان يقول: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

مرة زرت والد صديقي، قال لي: عمري ست و تسعون سنة، عملت فحوصات ولا يوجد أي شيء والحمد لله كل شيء طبيعي، تجده الآن في الخامسة و الأربعين معطوباً، ست و تسعون سنة أجرى فحوصات تامة، مرة قال لي: والله لم أكل قرشاً حراماً بحياتي، ولا أعرف الحرام، هذه الطاعة في الشباب لها نتائج باهرة في الشيخوخة، والعبرة في الشيخوخة، الإنسان يكون في مكانته، أعرف رجلاً ابتز أموال الناس بشكل لا أخلاقي، وشيد أجمل بناء في أرقى أحياء دمشق، والبناء موجود الآن، نوافذه مزخرفة، حجر مزخرف- هذه القصة في الثلاثينات- لا يوجد غيرها مطلة على الشام، بعد أن شيد البناء بشهرين أصيب بفالج، زوجته وضعته بالطابق الأرضي، تأتي الخادمة وتعطيه الطعام، يسألها: أين سيدتك؟ تقول له: والله قلت لها ولكن هي لا تأتي، تغيب عنه يومين أو ثلاثة ثم تأتي وتتشاجر معه، هذا الذي شيد لهم البناء وتعب فيه، ثم اقترحت أن تضعه في منزل بعيد عن بنايته بسبب الروائح، الله كبير، مهما قلت: الله كبير لا تشعب منها، كن مستقيماً وتواضع وأطع ربك وأنت شاب حتى يحفظك وأنت شيخ، يوجد شيخوخة رائعة جداً، هناك إنسان تجده في الثمانين، في التسعين.

مرة زرت شخصاً من المعمرين، عمره خمس و تسعون سنة، قال لي: الحمد لله صحتي ممتازة، أي بالنسبة لعمري ممتازة، أحد شيوخ الأزهر عاش مئة و ثلاثين سنة:

### ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

[ سورة يس:68 ]

ومن تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت.

## إكرام الله لمن يخلص في طاعته :

أخواننا الكرام؛ العضو الذي يعمل لا يضمّر، كل إنسان يصلي، يقرأ القرآن، يعمل ذهنه دائماً، أخي لماذا لا تدفع من مالك صدقة؟ أخي الله رازق العباد، أنا لست موكلاً بالعباد، لهم رب يرزقهم، هذا كلام الكفار:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

[سورة يس: 47]

أنت مستخلف في هذا المال، هذا المال يدك عليه يد الأمانة، فلا تصدق إنساناً يعمل عملاً صالحاً يبتغي به وجه الله، ويخلص في طاعته لله، إلا ويتلقى إكراماً من الله لا يوصف في الدنيا قبل الآخرة، يتلقى إكراماً واضحاً جداً، ويحفظه الله ويوفقه، لا بد من رد إلهي، أي أحياناً أنت تدفع عن إنسان في سيارة طول الطريق يشكرك، وهي كلها ثلاث ليرات، يثني عليك طوال الطريق، الذي منحك نعمة الوجود، ونعمة الهدى، ونعمة الإمداد، ألا يستحق أن تشكره؟